آثار مترجمة

هنري لامانس

للدكتور زكي محمد حسن
أمين دار الآثار العربية

— ١ —

ولد لامانس Lammens سنة ١٨٦٢ في مدينة غاند من أعمال بلجيكا، وتركها في الخامسة عشرة من عمره، واتخذ لبنان وطناً ثانياً له، ودرس في الكلية اليسوعية ببيروت، ثم اشتغل بالتدريس فيها منذ سنة ١٨٨٦، وتخصص في تاريخ الشرق الأدنى وجغرافيته وحضارة أهله من مسيحيين ومسلمين. وما لبث أن أتقن اللغة العربية وقرأ للمؤلفات الكثيرة في شعرها ونثرها وفقهها، فكان ذلك نواة نبوغه في الدراسات الشرقية، ذلك النبوغ الذي مهد له طوافه للدرس والتحصيل في البلدان الغربية والشرقية، ولا سيما في ألمانيا وإيطاليا وانجلترا ومصر. والذي كانت فاتحته تعيين لامانس سنة ١٩٠٧ أستاذاً في معهد الدراسات الشرقية، وكان قد أنشئ في الكلية اليسوعية ببيروت.

ثم اتصل الأب لامانس بأعلام المستشرقين. وتناثرت مؤلفاته المستقلة ومقالاته في مختلف المجلات العلمية ولا سيما في نشرات الكلية الفرنسية ببيروت Mélanges de la Faculté orientale de Beyrouth وفي المجلة الاسيوية Journal asiatique وفي مجلة ابحاث علوم الدين Recherches de science religieuse وفي مجلة الدراسات الشرقية Revista degli studi orientali وفي مجلة المجمع المصري Bulletin de l'Institut d'Egypte وفي دائرة المعارف الاسلامية

ويظل لامانس علماً من أعلام المستشرقين المشتغلين بدراسة التاريخ الاسلامي حتى وافته المنية ببيروت في مايو سنة ١٩٣٧، بعد ان أقعده الفالج عن السعي في السنين الاخيرة من حياته ومع ان هذا الراهب المؤرخ اخذ كثيراً من آرائه عن شيوخ المستشرقين مثل جلد زيهر

ونلدكه وكيتاني ولهوزن، فانهُ انتحى في البحث ناحية ميزتهُ عنهم، وبالغ في التعصب على الاسلام حتى أفسد ذلك علمه في بعض النواحي، وجعل المؤرخين وعلى رأسهم المستشرقون، يشكون في امانته العلمية، ويتهمونهُ بركوب متن الشطط

ولا يتسع المقام هنا لان نفي لامانس حقه من التحليل والدراسة فحسبنا ان نلقي نظرة على دائرة ابحاثه لنستطيع ان نتبين قيمتها العلمية

***

ولعلَّ من الانصاف لانفسنا وللاب لامانس وللحقيقة التاريخية ان نميز في آثاره العلمية بين ما دار منها حول اصول الاسلام واركانه وشخصية النبي عليه السلام، وبين ما عالج المؤلف فيه جغرافية بلاد العرب وتاريخها ونظمها الاجتماعية قبل الاسلام، وبين ما وقفهُ على دراسة الدولة الاموية وأبطالها من ملوك وأمراء وشعراء وأدباء

ونحن اذا أدركنا كنه العاطفة التي كانت تتجلى في كل نوع من هذه الكتابات، أمكننا في شيء من السهولة ان نكشف النقاب عن المؤرخ الراحل. ولكننا قبل ان نعرض لهذه المؤلفات نحرص على ان نؤكد ان لامانس قرأ كثيراً — بل كثيراً جدًّا — في التاريخ الاسلامي ولا نقرر الاَّ الحقيقة حين نقول انهُ كان واسع الاطلاع قوي الحجة، لهُ ذاكرة عجيبة ومثابرة على العمل قلَّ ان اجتمعتا لغيره من العلماء، فضلاً عن انهُ ملك ناصية اللغة العربية، ونفذ الى اعماق علومها المختلفة. ومع ذلك كله فلن يصعب علينا ان نثبت ان لامانس كان في ناحيتين من النواحي الثلاث التي انقطع للكتابة فيها عالماً قديراً، لبني امية تارةً، وللاعداء الاسلام تارةً أخرى، وانهُ كان خصمًا عنيداً للسلفيين عامة وللعلويين والعباسيين خاصة وانهُ كان يسلب العرب الفضائل والصفات الخلقية الجليلة التي أجمع المستشرقون على لبتها اليهم، وانهُ كان في خصومته هذه يسد في بعض الاحيان الى النقطة والمغالطة، مما سنسوق عليهِ بعض الامثلة في السطور التالية

— ٢ —

أما مؤلفات لامانس عن بلاد العرب وجغرافيتها قبل الاسلام، وعن جغرافية الشام وتاريخها السحيق، فمراجع ثمينة في موضوعها، ودراسات علمية صحيحة، لا يمكن ان يستغني عنها باحث في هذا الميدان. ولا غرو فقد قرأ لامانس كل ما كتب عن طبيعة بلاد العرب، وعن عادات سكانها واحوال معيشتهم في الجاهلية، وقام بالرحلات الطويلة في سورية وفلسطين حتى اصبح حجة في تخطيط هذه الاصقاع واخبار سكانها القدماء. وحسبنا ان نقرأ كتبه عن البادية

والحيرة[١] وعن مهد الاسلام[٢] وعن المعابد في غربي بلاد العرب قبل الهجرة[٣] وعن الطائف[٤] وعن مكة[٥] قبيل الهجرة ، نقول حسبنا ان نقرأ هذه الكتب ، لنتبين قيمتها العلمية الكبيرة ، ولنعرف انها تدل على ان هذا الراهب الجليل كان عالماً قديراً الا عند ما كان يكتب عن الاسلام وأبطاله

— ٣ —

أجل كان لامنس في مؤلفاته عن الاسلام داعية ، ولم يكن عالماً . وفي الحق انهُ لو انصف نفسه لترك الكتابة في هذا الموضوع الى باحث ليست له صفته الكهنوتية ، التي تكفي لتجريحه والتي كانت تدفعهُ الى تحقير الاسلام والى نسبة كل خير في هذا الدين الى المسيحيين والى اليهود في شبه الجزيرة

ويحضرني في هذه الساعة ما كتبهُ الدكتور طه حسين بك عن منهج البحث في كتابه عن الادب الجاهلي (ص ٦٧) . قال استاذنا العميد :

«اريد ان اصطنع في الادب هذا المنهج الفلسفي الذي استحدثهُ (ديكارت) للبحث عن حقائق الاشياء في اول هذا العصر الحديث . والناس جميعاً يعلمون ان القاعدة الاساسية لهذا المنهج هي أن يتجرد الباحث من كل شيء كان يعلمهُ من قبل وان يستقبل موضوع بحثه خالي الذهن مما قيل فيه خلوًّا تامًّا . . . . . فلنصطنع هذا المنهج حين نريد ان نتناول أدبنا العربي القديم وتاريخه بالبحث والاستقصاء . ولنستقبل هذا الادب وتاريخه وقد برأنا انفسنا من كل ما قيل فيهما من قبل وخلصنا من كل هذه الاغلال الكثيرة الثقيلة التي تأخذ أيدينا وارجلنا ورؤوسنا ، فتحول بيننا وبين الحركة الجسمية الحرة ، وتحول بيننا وبين الحركة العقلية الحرة ايضاً . ثم يجب حين نستقبل البحث عن الادب العربي وتاريخه ان ننسى عواطفنا القومية وكل مشخصاتها ،

(١) — La Badia et la Hira sous les Omayades
في المجلد الرابع من نشرة الكلية الشرقية في جامعة سان جوزيف ببيروت
(٢) — Le Berceau de l'Islam; l'Arabie occidentale à la veille de l'hégire روما سنة ١٩١٤
(٣) — Les Sanctuaires pré-islamites dans l'Arabie occidentale
في المجلد الحادي عشر من نشرة الكلية الشرقية في جامعة سان جوزيف ببيروت
(٤) — La Cité arabe de Taif à la veille de l'Hégire
في المجلد الثامن من نشرة الكلية الشرقية في جامعة سان جوزيف ببيروت
(٥) — La Mecque à la veille de l'Hégire
في المجلد التاسع من نشرة الكلية الشرقية في جامعة سان جوزيف ببيروت

وان نمس عواطفنا الدينية وكل ما يتصل بها ، وان نمس ما يضاد هذه العواطف القومية والدينية ، يجب الاّ تقيد بشيء ، ولا تذعن لشيء ، الاّ مناهج البحث العلمي الصحيح . ذلك أنا اذا لم نعين هذه العواطف . وما يتصل بها ، فسنضطر الى المجاهرة وارضاء العواطف ؟

وكيف لا تريد أن يحضرني هذا الكلام ، الذي تلقيته في الجامعة منذ نيف وعشرين سنة ؟ ومتى تريدني أن اذكره ، إذا لم اعمل الآن في الحديث عن لامانس ، الذي لم ينس عواطفه فيما كتب عن النبي والاسلام ؟

كتب لامانس عن الاسلام [٦] وعن اخلاص محمد في اعلانه الدعوة[٧] ، وكتب عن عمر محمد [٨] ، وكتب عن فاطمة وبنات محمد [٩] . وقيل انهُ كتب عن حياة محمد مؤلفاً لم توافق دوائر الفاتيكان على نشره ، خشية ان يؤدي ما فيه من طعن وتهجم الى احتجاج الامم الاسلامية وظهور المؤلفات في الرد على ما فيه

والاب لامانس في جميع هذه المؤلفات يتهم رواة السيرة بانهم مخترعون ، ولكنهُ لا يحجم عن الاعتماد على رواية من رواياتهم اذا استطاع أن يلمح فيها مطعناً على الاسلام

وهو حين يرى رواية أو حديثاً فيه مصلحة الشيعة ، اتهمهم بوضعه ، وحين يرى رواية تملي من شأن السنيين ، الصقها بكتابهم ، حتى انك لتراه يضرب كل فريق بالآخر ليقتنك باضطراب كل هذه العناصر التي قامت عليها السيرة ، وليخرج عليك هنا وهناك بآرائه المغرضة

وهو بعد هذا ان وجد في الاسلام موضعاً للفضل ذهب ينسبهُ الى مصدر غير اسلامي ، او يفسره تفسيراً ماديًّا ، يذهب بموطن الخير فيه : فلامانس لا يستطيع ان ينكر ان الاسلام حرّم قتل الذرية ووأد البنات ، ولكنهُ يستطيع ان يطلع عليك بقوله ان النبي دُفع الى هذا التحريم بحنينه الى الذرية ، بعد ان صار لطيماً في طفولته . وكذلك يستكثر لامانس ان يكون النبي ما نسبتهُ اليه السيرة من ابناء وبنات ، فيقول إن كتّاب السيرة فطروا ذلك رغبة في اعلاء شأن النبي . وهو اذا قرأ ان النبي لم يرغم بناتهُ على ترك ازواجهنّ الذين تأخروا في اعلان اسلامهم ، فسرهُ بان النبي كان يتشرف بهؤلاء الاصهار ، ويعمل على الانتساب اليهم ، ويحرص على ودهم . وهو ان تكلم عن السيدة عائشة لم يجد في مفردات اللغة الفرنسية الغنية الاّ كلمة favorite ليصف

---

(٦) انظر L'Islam, croyances et institution بيروت ١٩٢٦

(٧) Mahomet fut-il sincère ? في مجلة Recherches de science religieuse ج ٢ سنة ١٩١١

(٨) — L'age de Mahomet et la chronologie de la Sira في مجلة Journal Asiatique سنة ١٩١١

(٩) — Fatima et les filles de Mahomet, notes critiques pour l'étude de la Sira باريس ١٩١١

بها زوجة للنبي ، والقرب ترجمة لها بالعربية «محظية» . وهو يحرص على استغلال بعض الاضطراب في النصوص العربية التاريخية ليثبت ان الصحابة كانوا لا يقبلون من طيبة خاطر ان يصاهروا النبي ، ولكنه يذكر في موضع آخر ان رقية ابنة النبي كانت جميلة ، وان عثمان بن عفان انما اعتنق الاسلام ليتزوجها ، وينسى لامانس انه يذكر في موضع ثالث ان النبي كان يحرص على مصاهرة ذوي الحسب والنسب من المشركين ، وهكذا الى آخر الامثلة التي قلّ ان تخلو منها صحيفة من مؤلفاته عن الاسلام او السيرة .

وقد قرأت مرة في كتاب القضاة للكندي[١٠] : «حدثنا محمد بن يوسف قال : حدثني ابن قديد عن عبيد الله عن ابيه عن خاله القاسم بن الحسن : أن سليم بن عتر كان يصلي بالليل فيختم القرآن ، ثم يأتي اهله ، ثم يعود فيختم ، ثم يأتي اهله ، ثم يعود فيختم القرآن ، ثم يأتي اهله . فلما مات قالت امرأته : رحمك الله ! لقد كنت ترضي ربك وتسر اهلك »

وقرأت في تاريخ ابن عبد الحكم : « وكان سليم بن عتر كما حدثنا سعيد بن عفير احد العباد المجتهدين وكان يقوم في ليله . فيبتدىء القرآن حتى يختمهُ ، ثم يأتي اهله ، فيقضي منهم حاجته ، وربما فعل ذلك في الليلة مرات فلما مات قالت امرأتهُ : رحمك الله ! والله لقد كنت ترضي ربك وتسر اهلك »

قرأت هذا وضحكت من امر تلك الزوجة التي كانت تنسب لبطلها هذه المعجزات وقدّرت انهُ لو ظل يقرأ القرآن الليل كله لما استطاع ان يختمهُ اكثر من مرتين

وقرأ لامانس هذه الرواية كما قرأتها ، واستنبط منها في هدوء واطمئنان ، ان المثل الاعلى للمسلم هو ذلك القاضي الذي كان يتلو اربع مرات ويختم القرآن اربع مرات في الليلة الواحدة وسجل ذلك في صحيفة ٣٣ من كتابه عن فاطمة وبنات محمد

***

ومهما يكن من شيء فقد كانت للاب لامانس طرق غريبة في الحكم على النصوص العربية . وكان يرهق النصوص فيحملها اكثر مما تحمل ، ويستنبط منها اكثر مما تفيد ، بل كان يقضي الطرف عنها ان كانت تثبت خطأ آرائه . ونحن نستطيع ان نسرد الامثلة الطويلة على صحة اقوالنا هذه ولكن المجال هنا لا يتسع لمثل ذلك

وليس للمسلمين والشرقيين اول من لاحظ على لامانس تعصبهُ هذا فقد سبقنا اليه المتصفون من المستشرقين أمثال بيكر Becker ودسو Dussaud وجوديفروا ديمومبين Gaudefroy Demombynes وماسيه Massé . وحسبك ما قاله فيت في لامانس بمجلة ١٠ مايو سنة ١٩٣٧

(١٠) القضاء والولاة للكندي (طبعة جست) ص ٣٠٧ — ٣٠٨ .

لاعضاء المجمع العلمي المصري . (انظر عدد هذا العام من مجلة المجمع المذكور) . قال الاستاذ فييت عن « كتاب فاطمة وبنات محمد » من مؤلفات لامانس :

"Mais il est plus délicat d'admettre sans réserves "Fatima et les Filles de Mahomet". On y trouve une tendance assez systematiquement hostile, tendance qui a été relevée en son temps par tous les Orientalistes"

واليك ترجمة هذه العبارة :

« ولكن من الصعب ان نقبل كتاب « فاطمة وبنات محمد » في ثقة وبدون تحفظ . فان التعصب والاتجاه العدائي يبدوان له الى حدٍّ كبير ، وقد لاحظ المستشرقون هذا التعصب في حينه »

وقد عرض زميلنا الدكتور بشر فارس لكتاب من مؤلفات لامانس نعلّق عليه في كتابه عن العرض عند العرب قبل الاسلام "L'Honneur chez les Arabes avant l'Islam" بعبارات لا تخرج عن هذا المعنى ، فضلاً عن انهُ ساق بعض الامثلة على أخطاء لامانس في الاستنباط والقياس

— ٤ —

أما الجزء الثالث من مؤلفات لامانس فأبحاثه عن الامويين . وهي كثيرة أهمها عن خلافة معاوية الاول [١١] وعن خلافة ابنه يزيد الاول [١٢] وعن معاوية الثاني آخر بني سفيان [١٣] وعن مروان ابن الحكم [١٤] وعن زياد بن أبيه [١٥] وعن الاخطل شاعر الامويين [١٦]

(١١) ذهب لامانس الى ان أبا بكر وعمر وأبا عبيدة استولوا على أزمة الحكم بعد وفاة النبي وفاتك تنفيذاً لخطة سابقة يجهم . وقد كتب في ذلك بحثاً عن هذه « الحكومة الثلاثية » عنوانه Le triumvirat Abou Bakr, Omar et Abou Obaida ظهر في المجلد الرابع من نشرة الكلية الشرقية في جامعة سان جوزيف ببيروت . اما ابحاثه عن معاوية بن ابي سفيان فقد طبعت في المجلد الاول والثاني والثالث من النشرة المذكورة وظهرت على حدة سنة ١٩٠٨

(١٢) — Le califat de Yazid Ier طبعت في المجلد الرابع والخامس والسادس والسابع من النشرة السالفة الذكر وظهرت على حدة سنة ١٩٢١

(١٣) — Moawia II ou le dernier des Sofianides ظهرت في المجلد السابع من النشرة السالفة الذكر

(١٤) L'avènement des Marwanides et le califat de Marwan Ier نشرت في المجلد الثاني عشر من النشرة السالفة الذكر وظهرت على حدة سنة ١٩٢٧

(١٥) Ziad ibn Abihi, vice-roi de l'Iraq, lieutenant de Moawia I وصدرت سنة ١٩١٢. وكتب لامانس فضلاً عن هذه الدراسات المتفرقة كتاباً كبيراً عن الامويين هو Etudes sur le règne des Omayades وقد ظهر في بيروت سنة ١٩٣٠

(١٦) — Le chantre des Omiades : notes biographique et littéraires sur le poète arabe chrétien Akhtal طبع بباريس سنة ١٨٩٠

وربما استطعنا ان نلحق بتلك المؤلفات كتاباً في تاريخ سورية [١٧]. واذا تذكرنا ان كتب التاريخ العربية وضعت في العصر العباسي ، وان مؤلفيها كانوا يتقربون الى الاسرة الحاكمة بالطعن في بني أمية ، وان الامويين لم ينصفهم المؤرخون العرب ، وان دولتهم كانت عليها مسحة لادينية قرّبها الى اكثر المستشرقين ، اقول اذا تذكرنا ذلك كلهُ ولم ننسَ ان السيادة في العصر الاموي كانت للشام على غيرها من المقاطعات العربية ، لم نستغرب تعصب لامانس للامويين ووقفهُ جانباً كبيراً من جهوده العلمية لدرس تاريخهم السياسي ، وبيان فضلهم وازدهار الحضارة الاسلامية في عصرهم. وفي الحق ان عمل لامانس في هذا الميدان ليس الاّ حفظاً لتوازن . فهو لبني امية محام قدير ، يدافع عنهم ، كما دافع المؤرخون العرب عن العباسيين. وعلى القارىء او الباحث ان يكون قاضياً يسمع حجة الطرفين ، قبل ان يكوّن له في القضية رأياً

على ان لامانس كان له في هذا الميدان غناء وكفاية عظيمان، فقد عرف كيف يتخير الحوادث، ويتصيد النصوص والروايات ، ليظهر مواطن النبل والحزم والسياسة من بني امية ، وليرفع خسيستهم ، ويدفع التهم عنهم . ولقد اجاد لامانس في تصوير معاوية صورة السياسي الداهية ذي المبادىء المكيافلية ، التي استطاع بها ان ينتصر على اعدائه ، وان يؤسس لأسرته دولة ورائية متخطياً في ذلك كبار الصحابة ومخالفاً تقاليد العرب الجاهلية في انتخاب شيوخ القبائل

***

وهكذا نرى ان الاب لامانس غفر الله له كان من اشد المتحمسين على الاسلام . وهو بعد ذلك من المعجبين ببني امية، لأن دولتهم كانت لادينية، ولانهم أقاموا ملكهم في الشام، وتأثروا بالمدنية القديمة التي قامت في ربوعه . وكان المستشرقون انفسهم يعرفون في لامانس هذا العيب الكبير ويأخذونهُ عليه ، ولكنهُ كان وافر الاطلاع . وحسب المرء نفعاً ومرانة في التاريخ الاسلامي ان يقرأ لامانس ، وان يهضم ما يروقهُ من ابحاثه ، وان يبحث ويثب ليستطيع الرد على الجزء الباقي ، وان يراجع النصوص التي كان لامانس يبني عليها كثيراً من احكامه ، ليرى كيف كان يجحف في تفسير بعضها ، وكيف كان يهمل ما لا يتفق ورأيه، وكيف انهُ كان يعض الطرف أحياناً فيستنبط من الشواذ قواعد ومن الحالات الفردية احكاماً عامة [١٨]

(١٧) انظر La Syrie, précis historique

(١٨) انظر كتاب « في مصر الاسلامية » — هدية المقتطف سنة ١٩٣٧ — ص ١٦٢